الارشمندريت جورج خضر

تأملات في تجسد الكلمة

منشورات النور

الارشمندريت جورج خضر

تأملات في تجسد الكلمة

منشورات النور

" لما بلغ ملء الزمان ارسل الله ابنه مولوداً من امرأة، مولوداً تحت الناموس ليفتدي الذين تحت الناموس لننال التبني. ثم بما انكم ابناء ارسل الله روح ابنه الى قلوبكم صارخاً يا أبا (الآب)" (غلاطية 4 : 4-6).

هذا ما نسمعه في العيد وما يتم في الكنيسة سرياً. و لكن مولد الحبيب له ايضاً معنى شخصي، باطني خارج العيد اشار اليه الرسول بعيد هذا الكلام بقوله " يا بنيّ الذين اتمخض بهم مرة اخرى الى ان يتصور المسيح فيهم" (4 : 19). في الكلام الاول ولد المسيح خارجاً، في مغارة، من فتاة اسمها مريم. و في الكلام الاخير توق عند الرسول الي ان يولد الرب في كل نفس و كأن ما جري في التجسد ما كان الا ليلقي الكلمة الالهي نفسه في كل قلب بشري. و يبدو لمن تأمل في هذين المقطعين انهما متصلان اتصالاً وثيقاً بل انهما يؤلفان سياقاً واحدا، فبعد ان دعا بولس اهل غلاطية ان يعتبروا انفسهم ابناء على صورة الابن الوحيد اخذ ينهيهم عن العبادات الباطلة التي كانوا يتعاطون قبل نصرانيتهم. فالتعبد لها عودة الى العبودية الروحية التي كانوا فيها غارقين. فكل ما عدا المسيح، في اليهودية و الوثنية، عبودية و بالتالي حياد عن عهد البنوة و كأن المسيح لم يولد لنا. من أجل أن تكون لكم هذه الحرية في المسيح، يقول الرسول متابعاً، تعبت لأرد عنكم غيرة الاخوة الكذبة (4 : 17) " الداخلين زوراً الذين استرقوا الدخول ليتجسسوا حريتنا التي نحن عليها في المسيح يسوع فيستعبدونا" (2 : 5). فلست اتعب فقط و لكني اتمخض ليصبح المسيح وليد كل نفس فيكتمل اذ ذاك سر ظهوره.

انطلاقاً من هذا ان ما صح في ميلاد المخلص كما جاء للمرة الاولى يجب ان يصح في كل مولد له في المجال الانساني الداخلي. ما هي اركان الميلاد الخلاصي كما تبين من الكلام الرسولي الذي استهللنا به هذه الرسالة؟ انها ملء الزمان ، تدخل الهي، البتول، قصد فداء، حصول التبني، مناجاة الاب.

سوف نسعى الى استدرار معنى كل من هذه العبارات في انطباقه على الحياة الشخصية اذ كانت تواجه سر مولد الرب فيها.

مـــــلء الزمـــــان

ملء الزمان لا تعني، كما يتوهم بعضهم، الظرف المناسب و لكنها تعنى انتهاء الزمان. الكلمة الذي كان في البدء صار جسداً في الزمان الاخير. فالكلمة الذي هو الالف و الياء، يطلق الزمان و يقفله، لم يكن وقت ما كان الكلمة فيه. فالكلمة هو معطي الوجود و معنى الوجود.

اجل ان الاوقات تجري من بعد المسيح و ها قد انقضى على ميلاده تسعة عشر قرناً و نيف و مع ذلك فكل شيء ظهر بعد بيت لحم و اورشليم انما يضاف اليهما. كل خير ينبع منهما. كل ما يبني و ينقي و يهيئ للملكوت انما هو من زمان المسيح و دفق ابديته. كل حدث من احداث حياته في البشرة، كل تصرف في اخلاقه الفادية، كل كلمة تعليم و تعزية، كل نبضات قلبه نحو الآب و المساكين، ثم حياته السرية المجيدة في الثالوث القدوس تربط كل لحظة من وجودنا بزمانه المبارك.

و هو اليوم اذا شاء ان يولد في احبائه من جديد ينهي الزمان المتكسر الذي كان لهم، اوقات آدم العتيق. يضع ديمومته فيهم. يبدل ايقاعهم بإيقاعه. يحل فيهم ابديته فاذا بهم في حاضرة المقيم و هم جديرون بأن يقال لهم ايضاً ما قيل عنه: " انت ابني و انا اليوم ولدتك" (مزمور 2 : 7 و عب 1 : 5)

تدخـــــل الهـــــي

في ملء الزمان ارسل الله ابنه. الميلاد الثاني ميلاد من فوق قد يهئ له الجهد البشري و لكن لا يحدثه. هو بالكلية جديد بالنسبة الى ما ننتظر لان سلام الله يفوق كل عقل و كل القوى الزاخرة التي فينا. أجل، النفس ذواقة لله و اليه حنينها. و على ذلك ليس في الحواس و لا العقل و لا في خجلات العاطفة ما نستطيع تشبيهه باللطف الالهي اذا حضر. الله آخر كلياً اذا قيس بصورة بشرية مهما سما كمالها. فالإنسان يصبح جديداً لان الله فقط جديد. لم يكن، قبل حلوله في النفس، شيء مثله.

الله هو الذي يولد و ليس شيء منه. النعمة التي نُعطاها اشعاع منه، قوة منه و فعل من ذاته. لو كانت العطية شيئاً مخلوقاً يقذفه فينا، لو كانت من غير كيانه لما تحققت كلمة الرسول ان المسيح هو الذي يُتصور فينا، لما استطعنا ان نقول معه في حديثه الى اهل غلاطية : " انا حي لا انا بل انما المسيح حيّ فيّ" (غلا 2 : 20).

العيش الديني الرتيب، هذه الديانة الوجلة التي لا جسارة فيها انما هي الاشارة على اننا لم نصدق بعد اننا منزل للثالوث الكلي قدسه و اننا بالتالي عشراء الله. لعلنا لا نريد ان نعي اننا " شركاء الطبيعة الالهية" (2 بطرس 1 : 4) و كل ما دون الله ليس سوى محاولات عقيمة نقوم بها اذا عرضنا عن الكامل، عن الغوص في الحياة الالهية. نود الفرائض الخارجية لأنها لا تكلفنا بذل النفس من الاصول. انها تكفينا رؤية الله وجهاً لوجه فترضى النفس بالفتات. تتوهم ان الوصول الى الله هو يتراكم الاعمال الصالحة نقبل عليها بتوتر الارادة و اذا بنا في دوامة. الفراغ ضده الملء و العطش الكياني لا ترويه الا الينابيع المتفجرة من اعماق الرب.

قبل ان يصبح هو الكل فانه لم يولد فينا. و اذا كنا لا نزال نقيم لغيره او لشأن ما وزناً فانه ليس الكل. هذا هو شرط الميلاد البتولي.

البتـــــول

على غرار النهج الذي اتبعه الله في تجسد الكلمة يظهر الرب فينا بتولياً. انه فينا، كما في السيدة الفائقة البركات، يولد بغير زرع" لا من دم و لا من مشيئة جسد و لا من مشيئة رجل" (يوحنا 1 : 13). و كما جاء من النقية وحدها لكي لا يكون مديناً لانفعال بشري هكذا يولد اليوم من النفس البتول التي اخرست فيها صوت البشرة " و لا تفتكر فكراً ارضياً البتة". البتولية ليست وضعاً جسدياً ولكنها حال النفس اذا اسلمت الى ربها اسلاماً كلياً و تقبلت فقط زرع الكلمة الالهية. و قد علمنا باسيليوس الالهي ان الانسان يستطيع ان يعف عن الجسد و خيالاته دون ان يكون بتولاً، و ارشدنا الآباء ان الزانية في توبتها تصبح بتولاً من جديد.

لقد ولد الاله من العذراء حتى يبقى لنا ذلك مثالاً. انه دائماً وليد العذرية الداخلية." و ظهارت آية عظيمة في السماء، امرأة مسربلة بالشمس و القمر تحت رجليها و على رأسها اكليل من اثني عشر كوكباً و هي حبلى تصرخ متمخضة و متوجعة لتلد، و ظهرت آية اخرى في السماء. هوذا تنين عظيم احمر له سبعة رؤوس ... و التنين وقف امام المرأة العتيدة ان تلد حتى يبتلع ولدها متى فولدت ابناً ذكراً عتيداً ان يرعى جميع الامم بعصا من حديد. و اختطف ولدها الى الله و الى عرشه" (رؤيا 12 : 1 –5) هذه المرأة يقول لنا المفسرون، انها صورة عن الشعب الالهي الذي منه ولد المسيح. الكنيسة هنا شبهت بمريم لان تبتل الكنيسة الى ربها هو الذي يطلق المسيح في العالم. الكنيسة دائما حبلى بالمسيح و لا يهنأ

لها بال حتى يُعرف. انها دائما في المخاض حتى تلده. الكنيسة البكر التي لم تلتهِ عن ربها بشؤون الدنيا هي القادرة ان تبرز الرب للعالم.

هكذا النفس صارت عروساً ليسوع، ذلك لان الكنيسة في وحدتها و انصرافها الى المعلم صورة عن النفس الانسانية.

الزواج الروحي يقوم ليس فقط بين الرب و شعبه و لكن بين الرب و كل مؤمن.

هذا الزواج السري يفرض ان النفس هي وحدها مع الرب وحده. كل شعور نحو المخلوق، اذا كان يؤذي هذا التوحد، شعور وثني. ينبغي ان تنفصل النفس البكر عن الجميع لكي تكون، من خلال الرب للجميع. و لكن كل اختلاط ، في ذهننا، بين الخالق و المخلوق معصية للخالق من جهة لأنه شرك و اهمال للمخلوق. الانصراف الكلي لخدمة البشر يفترض استقلالنا الكلي عنهم.

قصـــــد الفـــداء

المؤمن، قبل كل شيء، مستقل عن الناموس ما عدا ناموس المحبة. " الريح تهب حيث تشاء و تسمع صوتها و لكنك لا تعلم اين تأتي و لا الى اين تذهب. هكذا كل مولود من الروح" (يوحنا 3 : 8). هذه هي حرية ابناء الله. انهم صاروا ناموساً لأنفسهم فانهم رسالة الله المكتوبة بأصبع الروح. اصبحوا هم انفسهم الانجيل الحي الملهم، شريعة لأنفسهم و الآخرين. من صار في المحبة فقد كملت الشريعة فيه. لقد ادرك عالم المعاني كلها. فقد توحدت فيه بعد تجزؤ. من خلال الله الذي فيه يرى هذه الوحدة بين الاشياء.

تجاوزنا للناموس لا يلغي الطقوس و العبارات العقائدية كمناهج الي الله. فالله يتراءى دائما لنا من خلال هذا الحجاب الذي يستر وجهه و يكشفه بآن. انها _ بهذا المعنى _ موطن السر الالهي و الحضرة المحية. الانسان اذا انعتق منها يسقط في خداع من نفسه و سراب. و لكن الله يفسر ها لنا كما يفسر لنا الكتب (لوقا 24 : 27 و 32). يحررها من كل كثافة هي حاجز دون معرفته. كذلك يحافظ العارف على كل لون من الوان الرياضة الروحية، على وسائل التقشف و الانضباط الكنسي عالماً بأن لها قيمة الوسيلة و مدركاً، بآن، انه عرضة للتجربة و ان يقع من جديد تحت وطأة الناموس كأنه لم يدخل الى عهد النعمة و لم يذق حرية الملكوت.

المؤمن العارف يختبر النعمة عطاء حياة. انه مقيم في النعمة، مُعمّد في النور. انه " مالك في الحياة" (روميه 5 : 17) ، صائر الى الابد في موكب الظافرين، تتجدد حياته في البر و الطهارة لان " الحياة التي يحييها انما يحييها الله" (روميه 6 : 10). رؤية الميلاد عنده هي رؤية الحياة التي اخذت، منذ اول لحظة التجسد، تتغلب على حدود الطبيعة و قوى الظلام، التي شرعت تقهر الموت المعشش فينا. في الايقونات البيزنطية، مغارة بيت لحم مرسومة باللون الاسود و الطفل الالهي ملقى فيها كتلة صغيرة من نور كأن قماطه الكفن و كأنه منذ تلك اللحظة دفين الارض . " النور يضيء في الظلمة"، لا يساوم و اياها، لا يتقاسمان النفوذ. انه يفنيها. المسيح ظافر منذ ان ارتسم في الحشا. عيد مولده هو فصح ثان كما قال كتاب قديم. المسيح دشن ارتفاعه في تواضعه. الذين قبلوه في سر الخفاء " اعطاهم سلطاناً ان يصيروا اولاد الله" (يوحنا 1 : 12).

حصول التبني

" لن ادعوكم فيما بعد عبيداً لأن العبد لا يعلم ماذا يعمل سيده لكني قد سميتكم احباء لأني اعلمتكم بكل ما سمعته من ابي" (يوحنا 15 : 15). كل محب ليسوع داخل حقاً في سره متكئ على صدره. يعلمه الله بكل ما عنده للبشرية من مقاصد حب. صار الله معروفاً لدينا. بيننا تبادل الصداقة، لقد احبنا اولاً لكي نفهم عظم محبته لنا، ليدربنا عليها فينفطر قلبنا و نصبح بدورنا محبين فنكتمل. و لكي ندرك كل ذلك كان من الضروري ان يرفعنا من وضع العبودية الى وضع البنوة." آدم ابن الله" (لوقا 3 : 38) فَقَدَ بنوته بالخطيئة و سقط في عبودية نفسه. فذاق المسيح الموت لأجل كل واحد " لأنه لاقَ بذاك الذي من اجله الكل و به الكل و هو آت بأبناء كثيرين الى المجد ان يكمل رئيس خلاصهم بالآلام. لان المقدَّس و المقدَّسين جميعهم من واحد فلهذا السبب لا يستحي ان يدعوهم اخوة" (عب 2 : 10–12). الانسان الذي تغرَّب عن الالوهة بالعصيان صار من " اهل بيت الله" (افسس 2 : 19). ليس هو _ كما قال الآباء _ عبداً يخشى العقاب و لا اجيراً يرغب في المكافأة و لكنه ابن. يحب لان الله تبارك اسمه جدير بكل محبة. لا نخاف لئلا نبقى في العبودية و لا نرغب في ثواب لا نزال نحسّه شيئاً معطى ولكنا نريد الله من اجل ذاته بعد ان اظهر لنا جماله في اخلاق يسوع المسيح.

منـــــاجـــــاة الآب

هَدَف التجسد ان يجعلنا الله متحدين به. حركة التنازل الالهي يقابلها حركة التصاعد الانساني و كان ينبغي ان يدشن حركة الصعود هذه الى السماوات السيد بعد ان اوصل ناسوته الى الكمال بالصليب. كانت طاعته الكلية حتى الموت طريق ارتقائه في الجسد الى السماويات و سيادته على الكنيسة و الكون. " الذي نزل هو الذي صعد ايضاً فوق جميع السموات لكي يملأ الكل" (افسس 4 : 10). المسيح المكتمل في ناسوتيته المجيدة هو الذي يطلق من كيانه المخلَّص الروح القدس. وكما كان دور الروح ان يرسم المسيح في الحشا البتولي فدوره اليوم ان يوصلنا الى "انسان كامل" (افسس 4 : 13) أي ان نصبح جميعاً عائلة الآب الواحدة ككيان واحد يؤلفه الرأس و الاعضاء. المحبة واحدة تقود هذا الجسد الى الرأس المسيح باستمرار. و هذا الجسد في تآلف اعضائه و اقتران بعضها ببعض آخر، ينمو في " معرفة ابن الله" أي في معرفة المسيح ابناً و ادراك الاعضاء اخوة له. دور بتلك النعمة التي تجعلنا غير مثقلين بأوزار العالم فنصلب مع المسيح و نموت معه لكي نحيا به. و اذا كنا احياء فنحن في سر صعوده. لقد " اقامنا معه و اجلسنا معه في السماويات" (افسس 2 : 6)

انها لعملية مستمرة. نحن، في السماويات، مع المسيح يسوع منذ جلس عن يمين الآب مثلما كنا معه في موته و قيامته لأننا لا نستطيع ان ننفصل عن الرأس المسيح. " حيث اكون انا فهناك يكون خادمي" . لقد بدأ المسيح جلوسنا عن يمين العظمة. و لكنها عملية حياتنا كلها لأنه علينا دائماً ان " نطلب ما هو فوق" (كولوسي 3 : 1). من اجل ذلك صلى ربنا في خطابه الوداعي :" ايها الآب اريد ان هؤلاء الذين اعطيتني يكونون معي حيث اكون انا" (يوحنا 17 : 24). دعوتنا الآن ان نتجه في روح واحد الى الآب (افسس 2 : 18). و الجدير بالذكر ان الرسول الالهي عندما يتكلم عن هذا الذهاب الى الآب يقول " اننا لسنا غرباء و نزلاء و لكننا اهل بيت الله و مبنيون على اساس الرسل و الانبياء و يسوع المسيح نفسه هو حجر الزاوية". فبين الرحيل الى الله و الاقامة في بيت مؤسس تضاد، و مع ذلك فالمسيح هو الذي يجمع الاضداد، لسنا اذاً مسافرين الى الله بحيث ننسى واجب الشهادة في العالم و لسنا راسخين في هذه الدنيا بحيث ننسى ان وطننا الاوحد هو في السماويات. من اجل تقديس الكنيسة القائمة في الدنيا تألم السيد " خارج الباب" (عب 13 : 12)، و يستتبع هذا الواقع الخلاصي ان نخرج اليه خارج المحلة حاملين عاره، لان ليس لنا هنا مدينة باقية (عب 13 : 13)، بهذا الانسلاخ المستمر عن الدنيا و الشخوص الى المحجة السماوية يتحقق فينا الدور الاخير من سر التجسد،

دور الرجوع الى الآب مصدر الوجود و غايته و مصدر الابن الازلي و غايته الفدائية، "آخر عدو يبطل هو الموت، لأنه اخضع كل شيء تحت قدميه، و لكن حينما يقول ان كل شيء قد اخضع فواضح انه غير الذي اخضعَ له الكل، و متى اخِضع له الكل فحينئذ الابن نفسه ايضاً سيخضع للذي اخضع له الكل لكي يكون الله الكل في الكل" (1 كور 15 : 26 –28) ، متى بطل الموت في اليوم الاخير ستتحقق سيادة المسيح كلياً على الكون، اما الآن ففي سر تخليه، احتراماً منه للإنسان و حريته، حباً منه للإنسان في امكان تمرده، ليس كل شيء خاضعاً له، و لكن عند بطلان كل قوى الظلام، و الموت رمزها، سيكون كل شيء في طاعة السيد و السيد نفسه، في زعامته لهذه البشرية المنصاعة، في تمثيله لها و حمله اياها سيخضع للآب. لم يكن الله الكل في الكل في هذه البشرية التي هي امتداد المسيح لأنها كانت، بجسديتها و عالميتها، خارجة على المشيئة الالهية. سيخضع المسيح لا بسبب من نفسه، بل من اجلها هي. سيخضع للآب فيصبح الله عند ذاك حقاً الكل في الكل.

ان نجعل الحياة المسيحية كلها سلوكاً نحو الآب امر يتطلب فعل الروح القدس. الروح نفسه الذي هيأ الطريق لتنازل الاله الينا هو الذي يمكننا من التصاعد اليه. التبني الذي حصلنا عليه بالتجسد يبقى دائم الامكان و يتقوى بهذا الروح الالهي عينه الذي يناجي الاب فينا، يصرخ "أبا" تلك الكلمة الآرامية التي تعني الاب انما كانت لفظة الدالّة التي كان اولاد العبرانيين يتوجهون بها الى والديهم و التي تقابل "بابا" في لغاتنا. بالبساطة الكبرى، تلك التي تمنحها الجسارة، يذهب المؤمن الى ذاك الذي يحقق وجودنا .

الذي يزيل من صلاته و فكره هذا السير الى الآب، الذي يركز كل تأمله على يسوع وحده، على حياته في البشرة، ولا يتطلع الى سر مجده و حركته نحو اصله الأزلي فقد بتر حياته الروحية من عنصر فيها اساسي.

حقائق الايمان هذه التي كشفنا، هي النور الذي رتب العيد لإظهاره للعالمين. و الانسان في تخبط حتى يجده. " و كان في تلك الكورة رعاة مبتديين يحرسون حراسات الليل على رعيتهم" (لوقا 2 : 8). من فوق ينبغي لهذا النور ان ينبلج: هو دائما وليد المجانية الالهية المحيَّرة." و اذا ملاك الرب وقف بهم و مجد الرب اضاء حولهم فخافوا خوفاً عظيماً". لا شك ان مرور الله يجعل الانسان في ارتباك ورعدة لان الله دائماً غير ما نتوقع.

انه مقلق للإنسان في تدابيره، بفصله عن ذكرى الماضي و خطط الاتي . يهزأ مما احتسبه الانسان حكمة في انجازاته . في أوان الله كثير ما يكون بعض من جنون خيراً من المنطق. او قل هو منطق آخر يقتحم العقل له نواميسه الخاصة. الانسان في مظهر الضعف ينزع عنه سلاحه ليتمرن على سلاح آخر. الحرب الروحية لها قواعد غير التي ظنها. مرور الله يقض المضاجع. لذا " قال لهم الملاك لا تخافوا فها انا ابشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب". الفرح دائماً غريب،آخر عن كل ما سبقه. نحن كلياً عاجزون عن تصور وقته و عمقه. انه دائماً جديد و مجدَّد لان صاحبه، على مثال الله، خالق. الفرح، كالخلق، لا يوصف. يعرف اليه ." انه ولد لكم اليوم في مدينة داود مخلص هو المسيح الرب" . داود كان مل الدعة، قلبه، يقول الكتاب، كان كقلب الله. في الدعة و النقاوة يولد الرب، يولد اليوم، في كل يوم من نفس كَفرَت بذاتها، صارت عذراء لربها و استطاعت ان تؤتي الناس الفدية من جديد بدخولها في سر البنوة العظيم و سيرها الدؤوب نحو الملكوت المقبل اليها في نجواها للآب. هذا هو سر القديسين انهم يحتضنون الله و يغذون حنين الكون اليه. لولاهم لما ظهر الله لمن تبدى في الليالي و لتحولت الدنيا الى صقيع. انهم هم الذين يجعلون كل يوم يوم خلاص و كل لحظة أو ان رضاء.